الثابت الخامس
الوحدة الوطنية

إن ما يجرى - فى الوقت الحاضر من اهتمام كل فصيل بالقضايا التى تخص من ينتمى إليهم طائفيًا، أو قوميًا أمر لا يبشر بأن العراقيين قد استوعبوا دروس التجارب المرة المتقدمة. والممارسات السياسية الحالية لم تستطع أن تنظر للعراق فى كليته، ولا للعراقيين على أنهم شعب واحد، والشيعى عندما ينطلق من منطلق معين، ومثله أخوه السنى والتركمانى والكردى، فإن ذلك يؤدى إلى تكريس الفرقة والتمزق. فيما لم يتعود المثقفون العراقيون والمنشغلون بالعمل العام على الخروج على تقاليد "الطائفية السياسية" والعنصرية السياسية فقد تتضاعف الخسائر التى ترتبت على سياسات العقود الماضية المرفوضة التى جلبت الكوارث على الجميع، وأدت إلى إعادة البلاد إلى الاحتلال من جديد. ولذلك فلابد من اجتماع الكلمة على "وحدة وطنية" صلبة. والإسراع بإعادة تحديد "الهوية العراقية" بدقة بحيث يغلق الطريق أمام دعاة الفرقة والتمزق وتكريسها بالطائفية والعنصرية والحزبية العشائرية، وما إليها من عوامل التمزق.

وهذه التوجهات لابد أن تتضافر الجهود على إيجادها فى الأجيال العراقية الطالعة فى كل مؤسسات المجتمع، وسائر مؤسسات بناء الرأى وإنتاج الأفكار بما فى ذلك دور العبادة، والبرامج الثقافية للأحزاب السياسية، وذلك لبناء حس وطنى مشترك ينفر عقليًا ونفسيًا من كل تصرف مفرق أو معل للانتماءات الصغرى الفرعية الخاصة على الانتماء المشترك.

الخاتمة

تلك - فى نظرى المتواضع - هى أهم الثوابت التى تحتاج منا جميعًا إلى المزيد من البحث والتأصيل والبلورة، والتى نحتاج إلى إعادة بناء الوعى عليها مع ضرورة التنبه إلى أنّ كل ثابت من هذه الثوابت إذا لم يأخذ نصيبه من التوضيح والبلورة والدراسة وتدرك وسائله وآليات بنائه وتثبيته فى العقول والنفوس فإنه قد يحمل آثارًا جانبية قد تودى بفوائده وتقضى عليها.

أما المتغيِّرات فهى كثيرة (١)، ومجال الاجتهاد فيها واسع ولن يحمل الاختلاف فى شىء منها خطرًا إذا سلمت الثوابت ووقع الإجماع العراقىّ عليها.

قد حاولت - فيما تقدم - أن أسلط بعض الضوء على حقيقة اعتبرتها قد غيبت إلى حد كبير، ولعلى بما ذكرت قد أنصفت قادة وجند ثورة العشرين المجيدة التى نُفِىَ أحد أبرز شيوخها الإمام مهدى الخالصى - تغمده الله برحمته - من الحاكمين بحجة كونه أجنبيًا وهو العراقى العربى الأصيل فنفاه عبد المحسن

(١) المتغيرات من أوضاع اقتصادية، وتنقل وإيجاد فرص ونسب سكان. كل تلك الأمور ليس من الصعب التفاهم عليها، إذا اتفق على الثوابت وحصلت القناعة بها وتوافر حسن النية وسلامة الطوية.

السعدون إلى الهند، ثم نفى إلى جدة وإيران [1]، وإذا كان السعدون قد صار رئيساً للوزراء فى العراق فبفضل جهاد الخالصى وأمثاله بلغ ما بلغ. وإلا فإنه لم يولد بهذه الصفة. وقد حاول الشيخ خزعل استضافة الخالصى فرفض الملك فيصل.

كذلك قد ألمحت إلى بذور الطائفية والعنصرية، وكيف غرست فى عراقنا العزيز، وقد نبهت إلى ما أصاب الإخوة الأكراد من حيف. ولم أرد بذلك إنصاف هذين الفصيلين المهمين جدّامن فصائل شعبنا، فذلك قد يحتاج إلى كتب، بل أردت أن أنبه إلى أن التاريخ يشهد على الناس فيما يوقعون فيه ولو بعد حين.

إن الذى يحدث الآن فى بلاد الرافدين هو تكرار فى أحداثه وفلسفته، وعناصر تكوينه لما حدث بعد ثورة العشرين، ولكن تغير أصحاب الأدوار فينبغى ألا تتكرر الأخطاء. فلا النقيب ومن جاء بعده من بناة "الطائفية

---

(١) انظر قضية نفي الإمام الخالصي ومخاطبة الشيخ خزعل (أمير المحمرّة) للملك فيصل باستضافته في الإمارة ورفض الأخير. راجع في ذلك: مذكرات سليمان فيض، مرجع سابق. ولقد كان العلماء الكبار الذين يمارسون دور المعارضة منذ عهد الدولة الأموية كثيراً ما كانوا يلجأون إلى "خراسان" والمناطق المجاورة لها ابتعاداً عن مضايقات وجود السلطان. وكثيرون من السادة والأشراف المعارضين كانوا يعمدون إلى حمل نسب أو ألقاب ترتبط بأماكن إقامتهم نحو الشهرستاني والقزويني والخوئي إمعاناً في التكتم، ونأياً عن المضايقات. وكان المؤرخ الكبير "ناجي معروف" قد شرع في إنتاج موسوعة "علماء العرب" الذين حملوا ألقاباً أعجمية أصدر منها قبل وفاته أربعة مجلدات، ولم يتصل العمل بها، والأمر يتعلق ببيان الواقع لا بالتعصب بقبيل على قبيل.

السياسية" أنهوا "الوجود الشيعى" فى العراق، ولا "الحقيقة الكردية" فيه. ولن يكون فى مقدور الحزبين الكرديين أن ينهيا "عربية العراق" ولن يكون فى مقدور الشيعة أن ينهوا الوجود السنى فيه ولا العكس يمكن أن يحدث، ومن هنا فإننا نرجو ألا تتكرر الأخطاء وتواجه "الطائفية" بطائفية والعنصرية بعنصرية مغايرة فلن يبنى ذلك وطنًا، ولن يحقق استقراراً، ولن يحرر الإرادة المستلبة.

ولذلك فإن شيعة العراق وسنته، وعرب العراق وأكراده، والقوميات والطوائف الأخرى فى حاجة إلى أن يدركوا جميعًا هذه الحقائق البديهية، وأن يخرجوا بفئاتهم كلها بميثاق وطنى تحدد فيه الثوابت والمتغيرات. فتحفظ الثوابت بتعاون الجميع وتفاهمهم وبميثاق شرف لا يعطى فرصة لأحد أن يتلاعب بشىء من تلك الثوابت، وأن يتعلم الجميع كيف يتعاونون على تحقيق المشترك، وكيف يحترمون خصوصيات إخوانهم ويدافعون عنها كما لو أنها كانت خصوصياتهم هم.

إن إعادة بناء منظومات التربية والتعليم والإعلام والثقافة بحيث تنتج نموذجًا للإنسان العراقى المطلوب هى التى سوف تجنب الأجيال العراقية القادمة ما وقعت فيه أجيال ما بعد ثورة العشرين، إن شاء الله.

وأخيراً فإن "لعبة الأمم" لعبة خطيرة، ولقد جازف العراقيون الذين حاولوا الاصطياد بالأسد، فالأسد لم يتعود أن يمثل دور "كلب الصيد". إن الأسد يصطاد حين ينطلق للصيد لنفسه ويأكل من فريسته أطايبها، ثم يترك ما بقى منها متفضلاً لبقية حيوانات الغاب من ضباع وكواسر.

ولقد صدق أبو الطيب المتنبى فى قوله :

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

والحر تكفيه الإشارة والعراقيون يعرفون كيف "يقرأون المحى" . وإعادة بناء العراق تتوقف على تلاحم أبنائه كافة ، ووحدة فصائله كلها . ونبذ الفرقة والطائفية ودعاتها .

نسأله - تعالى- أن يلهم العراقيين كافة أمر رشد يمكنهم من رؤية الحق حقًا والباطل باطلاً ، ويعينهم على إعادة بناء هذا البلد العزيز . إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

***

obeikandl.com